

## متقفو البلاط

### مقتطفات

- غادر الشعراء -
- أين؟
- إلى الوليمة
- كلهم؟
- كل الذين عرفتهم!
- (سعدى يوسف)

تكاد هذه الأبيات الشعرية الناضجة بالمرارة تختصر المشهد الثقافي الراهن في لبنان. يكفي أن نجبل بصرنا قليلاً لكي نكتشف عمق الهوة التي يؤول إليها الكتاب والمثقفون يوماً بعد يوم في وطن تكاد تصعب فيه الكرامة كما الحياة أثراً بعد عين. فمئذ سنوات يتم إلقاء القبض على الوطن قطعة قطعة ويتناوب على نهش لحمه التجار والمقاولون والقائلون بالأجرة وأمراء الطوائف والمشايخ والتابعون من الجهالة والأميين. منذ سنوات ست يُفرغ البلد من مضمونه، ويتحول إلى مجرد امتداد صخري لهذا الربع العربي الخالي بعد أن سُوى حجارته بالرمل وحريته بالوحل وأحلامه بالتراب الخامل. لقد سبق الجميع إلى حظيرة الطاعة بعد أن أبعده من أبعاد واغتيال من اغتيل وأسكت من أسكت بالتهديد حيناً وبملاحق الذهب أحياناً أخرى. خلال ست سنوات فقط استطاعت الصحراء أن تعلن انتصارها النهائي وأن تترعب الطوائف فوق مناطقها الصافية كعين الديك، وأن يتم ائتلاف المهاجرين والانصار في هذا العقد الفريد من النفاق السياسي اللبناني بامتياز.

لطالما كان المثقفون اللبنانيون صمام الأمان الأكثر فاعلية في وجه القمع والقهر ومصادرة الحريات. ولقد قدموا خلال الحرب وقبلها العديد من الشهداء الذين انتصروا لحرية الكلمة وسقطوا دون أقاليمهم في ساحة الدفاع عن كرامة الوطن وأهله (...). غير أن هذه المصائر المفجعة لبعض المثقفين «الطهرانيين» لا تحتل سوى جزء يسير من المشهد الثقافي العام في لبنان بينما يكاد متقفو السلطة يحتلون ما تبقى من المشهد. فهذه السلطة لم تقف كسابقاتها موقفاً متجاهلاً أو متعالياً أو لامبالياً إزاء المثقف، بل حاولت بداب جزءاً إلى خانقتها والعمل لفسادها والإفادة من قدراتها في منابرها ومؤسساتها ووسائل إعلامها المختلفة. وقد استخدمت السلطة بعض المثقفين الانتهازيين والاتباع بمثابة أحصنة طروادة أو رؤوس حربة للاستيلاء على بعض المواقع الثقافية الهامة التي كانت حتى وقت قريب منابر للدفاع عن حرية الفكر والمعتقد.

لقد كان سقوط اتحاد الكتاب اللبنانيين في قبضة السلطة الرمز الأكثر تعبيراً عن تخلي المثقفين اللبنانيين والتحاقهم «بالوليمة»، في حين كانت المؤسسات الأخرى للمجتمع الأهلي تذهب في اتجاه معاكس وتعبر من خلال نقابات المحامين والأطباء والمهندسين عن رفضها لقهر الوطن وإذلاله. في هذه الحرب الضروس على مصير لبنان ومستقبله تلعب النخب المميّزة من ذوي الاختصاص والتكنولوجيا والمهن الحرة الدور نفسه الذي كان يجب أن يلعبه الأدباء والشعراء والكتاب، وتقف هذه النخب وقفاً شجاعاً في وجه وحشية النظام السياسي وتخلّفه واستبداده. هذا النظام نفسه هو الذي عمم البطالة ونشر الفساد وهجر الكفاءات وضرب أجهزة الرقابة بدءاً من «مجلس الخدمة المدنية» حتى «ديوان المحاسبة والتفتيش المركزي». وهو نفسه الذي ضرب الحريات، ورفع الضرائب إلى منسوبها الأعلى، وأقفل بيوت الناس على أصحابها خشية من انفضاح الفقر وانكشاف الفاقة والجوع. وهو نفسه الذي ارتكب سابقة مصادرة الكتب والنشورات (...) وهو نفسه الذي يجيء الآن بمجلس نواب على شاكلته ومقاسه ويجري انتخابات هي الأكثر تزويراً وازدياداً لمشاعر الناس في تاريخ لبنان... انتخابات تبدو وكأن هدفها الوحيد هو التخلص من ذوي النزاهة والكف النظيف ورموز الاعتراض الذين لا ينحنون ولا يبصمون ولا يحسنون التبريك والتبخير، والتخلص في الوقت ذاته من المشرعين والقانونيين وأهل الاختصاص لكي يحلّ محلّهم المقاولون وتجار البناء والأدوات الصحية وأثرياء الحرب وتابعو السلطان.

وفي حين أن على المثقفين أن يكونوا الصوت والصرخة والضمير، يتحولون إلى أبواق في منابر الحاكم وإذاعته وشاشاته، وإلى منافحين عن سرقاته وارتكابه وامتيازاته. وأحد بعد الآخر يلتحقون بالبلاطات اللماعة على شكل مبشرين أو دعاة أو مستشارين، ويسعون إلى تبرير ذلك بالعقلانية والواقعية السياسية حيناً وباللاجدوى وانعدام الأمل حيناً آخر. مثقفون وأدباء يتمرغون على أبواب الحاكم بحثاً عن فتات رغيف مغشّ بالذّل أو منصب مهوور بالعار والمهانة، حتى إذا جلسوا للكتابة وأحوا يتحدثون عن الاعتراض وعن اقتحام السائد وتقويضه، وأحوا يتحدثون عن تفجير اللّغة وهدمها فيما هم ينحنون إعجاباً للغة الحاكم الركيكة وخطاباته المهلهلة، وأحوا يدعون الريادة والتغيير والتجاوز، فيما هم يتحولون إلى شعراء مآذب وإفطارات وتدشين منجزات وجمعيات وأوتوسترات. قلة قليلة فقط هي التي تحفظ للمثقف كرامته ودوره في هذه المعمة الهائلة من النفاق والتزلف وسفح ماء الوجه. (...)

ش.ب. (جريدة النهار 14/9/1996)

بل عمدوا إلى الدسّ الرخيص وتحريض أهل السلطة على زميل لهم [هو كاتب هذه المقالة - الآداب] لم يكن همّه سوى الحفاظ على كرامة المثقفين ودورهم الريادي الذي أهّلهم منذ بداية القرن لأن يقودوا مع جبران ونعيمة والريحاني حركة النهضة العربية المعاصرة.

إن احتجاج هؤلاء بعلاقة التكامل التي يجب أن تقوم بين الثقافة والسياسة لا يغيّر شيئاً من جوهر الأمر. ذلك أن المسألة المطروحة ليست في مبدأ العلاقة بين المثقف وأهل السلطة بل في شكل هذه العلاقة وكيفيةتها... إذ يحق للمثقف والمبدع أن يكون مؤيداً لهذه السلطة أو تلك، كما يحق له أن يختلف معها وينقضها كلياً؛ وقد تولّى الكثير من المثقفين مناصب رئيسية في بلادهم كما حصل لأندرية مالرو في فرنسا أو ميلينا ميركوري في اليونان. لكن لهذا الحق شرطين اثنين ينبغي توفّرهما: أولهما أن لا يضحي المثقف بقناعاته الجوهرية من أجل المنصب، وثانيهما أن تكون علاقة المثقف بالسلطة علاقة تكافؤ واحترام وتقدير لا علاقة استنزاف وتبعية والتحاق. لقد كان مستغرباً في السجال الدائر أن يكون بعض رجال السلطة [السابقة] في لبنان أكثر وعياً من بعض المثقفين فيما يتعلق بدور المثقف وتميزه واستقلاليته. ففي حوار متلفز مع الوزير السابق فؤاد بطرس أعلن الوزير أن على المثقفين أن يحاذروا الوقوع في حبال السلطة وأشراكها لأنهم يشكّون ضمير الأمة وخرّبتها النقدي وإحساسها العميق بالمستقبل. وإذا كان لا بد من علاقة، في رأي بطرس، بين المثقف والسلطة فيجب أن تكون علاقة ندية من جهة ونقدية من جهة أخرى.

\*\*\*

إنه لمن المؤلم أن نضطر إلى الاستشهاد ببعض المتنورين من أهل السلطة للردّ على المنطق الرث والهزيل لمثقفي «الخدمات والإفطارات وحفلات الرعاية والتدشين» الذين فقدوا أدنى مقومات الإحساس بكرامة المثقف وخطورة دوره، في وقت تقف فيه الأمة عند نقطة الصفر مدافعة عن مستقبلها بل ووجودها برمتها. غير أن ما يعزّي المرء هو أن الصورة ليست قاتمة تماماً، بل ثمة أقلام مبنوثة هنا وهناك ما تزال تشهد للحقيقة حتى الاستشهاد وتصرّ على اجتراح الأمل من بطن الهاوية.

بيروت